السبــــــت 2010-05-01

974- كـل شــــىء هـــادئ فـــى الميـــــدان الشرقـــى!!

تعتعة الدستور

.... تعجب بعض الأصدقاء من دعوتى لثقافة الحرب وهم يعرفون عنى مدى كراهيتى للحرب ورفضى لها، سألونى هل الدعوة لثقافة الحرب، هى دعوة إلى الحرب؟ كيف ذلك وأنا أعلن حرجى، - بل رفضى لو استطعت - أن أزهق روح محارب لا أعرفه وراءه أسرة تنتظره، لمجرد أنه أطاع رئيسه ليكون فى مرمى مدفعى، فى ميدان قتال حضَرَهُ ليقتلنى؟

ما هذا التناقض؟

رحتُ أبحث فى أوراقى، وذاكرتى:

أنا أكره الحرب كره العمى، عادى، وقد بدأت كراهيتى لها منذ صباى (14 سنة) حين قرأت رواية "كل شىء هادئ فى الميدان الغربى" للكاتب الألمانى "إيرش ماريا ريمارك" (1929)، **نفس بداية الصديق على سالم فى كراهيته للحرب، وله ما انتهى إليه، ما دام يتحمل مسئوليته، فى حين انتهيت أنا إلى أن ثقافة الحرب، هى قانون البقاء، هى حالة استنفار دائم لوعى يقظ محب للحياة، جاهز للانقضاض على أعدائها الظلمة القتلة، حالة لا تهدأ أبدا حتى بالسلام، الذى هو - كما ذكرت - "سكتة" بين حربين. ثقافة الحرب هي الجهاد الأكبر، هى تآمر مستمر لصالح الحياة، شريطة أن يتم تحت مظلة عدل حقيقى بفرص متكافئة. ثقافة الحرب هى هذا الوعى الدائم بحالة حرب حياتية يمكن أن تفرز إبداعا، أو تصنع قنبلة ذرية، أو تنتصر فى معركة، أو تنهزم فنتعلم فنحارب من جديد. لعل هذه الحالة هى التى قفزت منى منذ ربع قرن فى مقال "قصة" يؤيد العمليات الانتحارية مادام ليس لها بديل، لتنشر فى الأهرام (17/ 10 /1985). اكتشف الآن أننى -برغم تأييدى لمعاهدة السلام- مازلت أعيش ثقافة الحرب كما ظهرت فى هذه القصة:**

القصة:

"الذراع ..والحزام"

تمتد الذراع الأفعى الى حيث لم أحتسب، تنسحب اليد اللزجة فوق المجرى المخفى فى ثنايا الستر، تلصقنى الأخرى على قفاى،

يـتـنـخم صوت خشن دون تـوقف حتى أتـبين أنها قـهقـهة تـصدر من أمعاء مخمور لم يـتقيأ، يـبصق على وجه ابـنتى الـنـائمة فى حجرى قـائلا: ".. كله بـثمنه .. والـلى عاجبه"

الممثل الأكبر يـدهن شعره المصبوغ بـشحم نتن، يـتحدث عن الـعدل الـقـاتل والـرد الملغوم، وصدور تـشريع أحدث لـتقنين الـنـذالـة والـوغدنـة المُـوَجِّهة، أى والله، أتـقـيأ شِعرى، أوزان قصائده حجارة من سجيل تـلطم وعيى، أفـتح درج مـكتبى لأبحث عن نـتـائج آخر بحث علمى لم افسِّر بـعد نـتـائجه، أرقـام مـرصوصة فى جداول معقـدة، يـشغلـونـنا طول الـوقت بهذا الـعبث الـدائـر حول جزئـيـات الجزئـيـات، أعثر مـصادفـة على عقد زواجى فـأخفيه بـعيدا خشية تمزيقـه، ألـعن مـيـثاق الأمم المتحدة والـوصايـا الـعشر، وإعلانـات الـعمرة الـسيـاحية. أخجل من مجرد الـتـفكير، لا أجرؤ أن أتـطلع فى وجه حفـيـدى، يـستـديـر- نـائـما- يخفى وجهه فى رحم وسادة صغيرة، لـيست نظيـفة، ألـعن الانـتـخابـات، والـصحف، وأبـراج المساكن، والمدن الـسيـاحية وأسعار الـدولار، أطمس إحساسات غافـلة لم تـطمس بـعد، مـا عـاد يجوز.. مـا عاد يجوز..،

اتحسس خيط الـدم يجرى فى كل دروب وجودى، فـهـو الـقـتل. فـرض كفـايـة؟ أظن كفـايـة، بـل فـرض عين لا يـسقـط أبـدا، لا يـسقـطه ان تحارب كل الأجنة فى بـطون أمهاتها، لا يـسقـطه ان يـتـبدل الـنـاس غير الـنـاس، الـعار يـصبح عارا أبـشع إذا عبـثت بـه عتمة الـذاكرة او مؤتمرات الـقـمة.

سوف أقـبل الـدعوة، هذا هو رقم تـليـفون قـريـبى الـذى كان يـعمل بـالمخابـرات، يـكرههم أكـثر من كراهيـته لـذئب مسعور يجرى جائـعا فى روضة اطفـال، سوف يـدلـنى على نـوع المتـفجرات وطريـقـة الـتشغيـل، لابـد أن تـكون الـزيـارة 'الـعلـمية' الـثـالـثـة او الـرابـعة حتى يطمئـنوا، زملائـى حسنو الـنـية مهدوا الـطريـق، الأسس الـنفسية لـلتـفاوض الـدولى (!!) لـيكن بحثا علميا يحتاج لمقـابـلة الـصقـور والحمائم مجتمعين، سيكولـوجية الـعلاقـات الحازمة الإثـنـية (أى كلام بـلا معنى: بـكاهلشا رونميـزيز)- الحزام رقـيق الـسمك تمامـا، والـتحكم من خلال قـلم حبر جاف، يحتد الـنقـاش الـعلمى، أنـفجر، بى- فـيهم .. معلـنا وصيتى، رسالـتى.

أنـتـقـل عبر الحاجز غير المرئـى اشعر انى أخف وزنـا حتى اتصور - فـرحا- أن الـطيران الـلولـبى الـصاعد سوف يـدوم إلا ان ثـقـلا يـدب فى أطراف أصابـع الـقـدمين، يـتسحب لـلساقـين فـالجذع، يجذبـنى الـثـقـل الى أدنى أهبط أهبط فى رعب ساحق، لماذا؟ ألم افعل ما يـنـبغى؟ الا يـكفـى؟

أحاول ان افـيـق مـرتـين بـلا جدوى. لا أعرف الـسباحة والـبركة آسنة بـلا قـاع، أغوص - رغم زئـبـقـية الـقـوام - فى منقـوع الـعار والمرارة (لم تـكـتب سنـاء الحيدلى قـصة، لم تـقـرض شعرا، ولا قـامت بـبحث علمى لمؤتمر يـستمنى)

لا أجد عذرا أنـتحله، عنين يـتـوارى خجلا من استمراره حيـا.

....

انـتـهت الـقـصة، ولم تـنـتـه الحروب!! بـالـرغم من أن "كل شىء هادئ فى الميـدان الـشرقـى"